

من نظريات التعلم إلى التدريس*

ترجمة: الطيبي الحيدوي، أستاذ الفلسفة وعلوم التربية، جامعة القاضي عياض، المدرسة العليا للأساتذة-مراكش، المغرب

elhaydi.taybi@gmail.com

والواقع أن التدريس يتوفر على الكثير من المناهج، التي يعتمد بعضها على النظريات السيكلوجية للتعلم (رغم انعدام أي علاقة سببية بين النظريات السيكلوجية والممارسات البيداغوجية). والهدف المنشود من هذا المقال هو بالذات، تبيان كيف يمكن للنظريات السيكلوجية الإسهام في تعديل الممارسات في الوسط التربوي.

يمكن بالفعل تجميع نظريات التعلم ضمن منظورات متعددة (قد تتقاطع أحيانا)، فتركز المقاربة السلوكية على مختلف أشكال « التكييف » وتغيير السلوكات، وتهتم المقاربة المعرفية بالاستراتيجيات الذهنية للمتعلم (معالجة المعلومة)، فيما تنشغل المقاربة النمائية والسوسيو معرفية في الآن عينه بمراحل النمو، وبالتفاعلات بين المتعلم وبيئته الاجتماعية، وأخيرا المقاربة التي يمكن نعتها بذات « المنزع التفاعلي » أو الاندماجي، التي تسعى إلى

إقامة روابط التقاء بين المقاربات السابقة. وكل هذه المقاربات تطرح وتقترح أدوات (غير متناقضة بالضرورة) لتنشيط قدرات التعلم لدى التلميذ.

ساهمت النظريات السيكلوجية في تجديد مناهج التدريس، وسواء تعلق الأمر ببيداغوجية الأهداف أو التدريس بالاكشاف أو التقويم الذاتي، فقد أبرز كل نموذج بعدا معينا للتعلم الجيد.

في إحدى قاعات الدرس يقوم الأستاذ بعرض حول المعنى الذي يتعين إعطاؤه لقصة قصيرة للكاتب غي دي موباسان (Maupassant)، في حين يستمع التلاميذ ويسجلون النقط .. وفي قاعة أخرى يأتلف التلاميذ في مجموعات عمل، تتناول بالنقاش نص موباسان، ثم في قاعة ثالثة ينشط المدرس الفصل- الجماعة ويناقش مع المتعلمين: كيف فهموا النص؟ وما هي الاستراتيجيات التي اعتمدها لإعطاء المعنى؟

صحيح أن على المدرس أن يكون متمكنا من مضامين التعلم، لكن عليه أيضا إكسابها لغيره. وحتى يتأتى له ذلك، يمكنه الاختيار بين العديد من الأشكال البيداغوجية، من قبيل العرض المنبري المشفوع بتمارين يتعين إتقانها، أو المقاربة بالاكشاف، أو وضع المشكلات التي يتعين حلها، أو التعلم التعاوني، إلى غير ذلك.

* النص الأصلي: Georgette GOUPIL et Guy LUSIGNAN, « Des théories de l'apprentissage à l'enseignement », in *Sciences humaines*, N°98, Octobre, 1999.

أثر السلوكية في التربية:

يكون حينئذ قائما بكونه قد تمكن من مراحل التعلم السابقة، في سلسلة تترتب فيها المهام وفق نظام تعاقبي. هناك في كندا-كيبك العديد من الأقسام العادية والمتخصصة (لتلاميذ في وضعية صعبة أو وضعية إعاقة) ، التي تستعمل البرامج القائمة على المقارنة السلوكية. هذا الإجراء يركز كثيرا على لزوم بدء التعليمات انطلاقا من المستوى الأساسي للتلميذ، وبعبارة أخرى انطلاقا مما هو قادر على النجاح فيه. والواقع أن تحليل المهمة (أي تجزئ السلوك المركب إلى الكثير من السلوكات الجزئية)، هو فعل مألوف في هذه البرامج، وبعضها، مما يكتسي صبغة خاصة موجهة لشخص بعينه، يتأسس على هذه المبادئ نفسها. فعلى سبيل المثال، وبصدد التلاميذ الذين يعانون تخلفا فكريا، تم وضع برامج متدرجة لتعلم اللباس والاستقلالية في التواصل مع الأقران وغير ذلك. ولقد تم تشريف بوروس ف. (Burhus) وسكينر (Skinner) سنة 1999 من قبل الجمعية الأمريكية للتأخر الذهني، وذلك من بين خمسة وثلاثين شخصا أجزوا أعمالا معتبرة في مجال التخلف الفكري خلال القرن العشرين.

في أهمية التنشيط:

اقترح عالم النفس الأمريكي جيروم برونر (J. Bruner)، في سياق تأثره بمقاربة جون بياجيه، مقارنة مؤسسة على النمو الذي يولي أهمية كبرى لاستقصاءات واستكشافات التلميذ. وهي المقاربة التي تشدد على دور الخبرة والبيئة في عملية التربية. وقد عمل برونر في سنة

كان للمقاربة السلوكية تأثير كبير في علم النفس. ففي البداية أسهم نهجها التجريبي القائم على الملاحظة الدقيقة للظواهر، في تحقيق قدر أكبر من الموضوعية في دراسة ممارسات التدريس. ومن خلال امتدادها البيداغوجي، أمكن تصور أدوات للتقييم في الرياضيات، وكذا في القراءة والكتابة، عبر شبكات الملاحظة الخاصة بالسلوكات الفردية، وبالسلوكات ضمن المجموعات، وما إلى ذلك.

إلا أن أبرز ما جاءت به السلوكية هو بلا ريب، إسهامها بالولايات المتحدة نهاية الخمسينيات في بلورة برامج للدراسات حسب «أهداف التعلم»، وهي مقارنة تقتضي أن تحدّد لكل تخصص مراحل وعتبات، يجب على التلميذ استكمالها حتى يبلغ هدفا معينا. كما مكّنت المقاربة «بالأهداف» من إرساء ممارسات للتقييم، حيث يجري تقويم التلميذ بموجب أهداف محددة («كأن يكون قادرا على إنجاز عملية الضرب») واستنادا إلى معايير معروفة لدى التلاميذ والمدرسين معا.

هذه المقاربة تُبينها «بيداغوجيا التمكن» بشكل جلي للغاية. وهي تقوم على تقديم مادة معينة (كالفرنسية مثلا أو الرياضيات أو اللغة الأجنبية أو غيرها) بواسطة أهداف محددة في شكل سلوكات مجزأة على مراحل تعلم، ويتم إجراء اختبارات تشخيص قبل كل مرحلة، فيباشر التلميذ بالتالي الاضطلاع بمهمة جديدة في مستوى معين يمكنه النجاح فيه، لأن اليقين

ذلك. وتميز النظريات المعرفية بين العديد من أنماط المعرفة، التقريرية منها والإجرائية والشرطية. حيث تتعلق المعارف التقريرية بالمعارف المعطاة (من قبيل معرفة تاريخ الحرب العالمية الثانية)، بينما تركز المعارف الإجرائية على «المهارات» (من قبيل كيفية تعلم درس في التاريخ)، فيما تشير المعارف الشرطية إلى لحظة وسبب لزوم استدعاء هذه المعارف. ولكن اعتنت المدرسة لأمد طويل بالمعارف التقريرية، فقد عملت نظريات التعلم المعرفية بالأحرى على إبراز أهمية تدريس الاستراتيجيات والإجراءات. مثلما جلبت انتباه التلاميذ إلى أسباب ومنااسبة استعمال هذه الاستراتيجية أو تلك. وبذلك صار شعار «تعلم التعلم» لازمة للتعليم إبان الثمانينات.

لقد أثرت نظريات التعلم المعرفية بطرق مختلفة على المقاربات البيداغوجية. إذ احتفظنا من النظرية الجشطولتية (سيكولوجية الشكل) بفكرة أنه من أجل حل مشكلة معينة، يلزم وضعها في سياق أوسع، حيث يفترض الاستبصار (باعتباره إدراكا شاملا ومفاجئا لحل المشكلة) إدراك وضعية التعلم ككل، وأن التلميذ يفهم المعنى الكلي لما يقوم به أكثر من كونه يطبق الإجراءات الآلية، أو أنه يحفظ عن «ظهر قلب». وسواء تعلق الأمر بتعلم درس الجغرافية، أو بحل مشكلة في الرياضيات، أو بفهم نص، فإن إدراك المعنى الكلي هو أكثر أهمية من توالي المعلومات المجزأة.

● استراتيجيات التعلم: قام دافيد ب. أوزوبل، منذ ستينات القرن العشرين، بتطوير نموذج منهجي

1960، ضمن كتابه **سيرورة التربية**¹، على تعميق التفكير الذي سبق أن باشرته - قبل ذلك بسنة - جماعة من 35 عالم ومرّب اجتمعوا بمنطقة كاب كود (Cape Cod بماساشوسيت)، وهي الجماعة التي استهدفت صياغة اقتراحات لتطوير تدريس العلوم في المدرسة.

يلح برونر على أهمية العديد من العناصر وخاصة على ضرورة هيكلية المعارف ضمن كل متجانس: «ذلك أن المعارف التي نكتسبها دونما بنية ملائمة تربط بعضها ببعض، هي معارف معرضة للنسيان.» كما أنه يلح بشدة على دافعية المتعلم. وفي نظره يعد التنشيط المستمر لاهتمام التلاميذ شرطا أساسيا للتعلم. وسيطالب برونر فيما بعد، باستعمال التقنيات البيداغوجية، من قبيل توظيف المتقابلات (بالعمل على استخراج الفوارق بين العناصر حتى تتمايز أمام بعضها كما يتمايز المثلث قائم الزاوية والمثلث متساوي الأضلاع)، ومن قبيل المشاركة النشطة للتلميذ بواسطة اللعب، واستيقاظ وعي التلميذ بخصوص الاستراتيجيات المستعملة في التعلم وكذا التعلم من سبيل الاكتشاف.

النظريات المعرفية:

تتم نظريات التعلم التي تطورت ضمن امتدادات علم النفس خصوصا بالاستراتيجيات الذهنية وبأسلوب الاستدلال وحل المشكلات، بمعنى كيف لتلميذ أن يتعلم القراءة، وينجز عملية الجمع وغير

¹ مقابله الإنجليزي: (the Process of Education)

لقد صنف فاينشتاين (C. Weinstein) وماير (R. E. Mayer) استراتيجيات التعلم إلى فئات عديدة وهي:

- **استراتيجيات التعداد:** وتقوم على حفظ قوائم كلمات. فمثلا، يمكن تقسيم درس معين إلى خمس فقرات تحيل على كل منها كلمة دليلية؛
- **استراتيجيات الإعداد:** وتتأسس على إقامة ترابطات بين المعلومات، فإذا كنت أتعلم الإنجليزية، مثلا، فإني أسعى لحفظ معنى اللفظ [pushy] الذي يعني [مغرور] بأن أربطه بصورة ذهنية: كأن «يدفع» فرد شخصا آخر، (مستحضرا اللفظ الفرنسي [pousse] القريب من اللفظ [pushy])؛
- **الاستراتيجيات التنظيمية:** وتقوم على تنظيم مهيكلا للمعلومة. فمثلا، يمكن حفظ المعلومات الأساسية لهذا المقال بأن نقطعه إلى فقرات وإلى أفكار رئيسية، ثم نلخصها في شكل جدول؛
- **استراتيجيات التحكم في الفهم:** إن القارئ الجيد هو من يحسن تكييف سرعة قراءته مع الهدف الذي يضعه لنفسه، أو مع مستوى فهمه للنص. ويجسد هذا التحكم الذاتي استراتيجية «ميتا-معرفية» هامة في القراءة؛
- **الاستراتيجيات الوجدانية:** وتعتمد على تحليل المرء لانفعالاته وتحكمه فيها بُغية تسهيل التعلم؛ من قبيل الاسترخاء قبل الامتحان وتعلمه كيفية تدبير الزمن والتركيز قصد الدراسة، وما إلى ذلك.

للتعلم المعرفي المطبق على التدريس، إذ تعتمد جودة التعلم، بالنسبة إليه وفي الآن عينه، على كم المعارف ووضوحها وتنظيمها وتمفصلها مع معارف سابقة، حيث يقول: «إذا كنت سأحتزل علم النفس التربوي في مبدأ واحد، فإني سأقول ما يلي: إن أهم العوامل المؤثرة على التعلم هو أن المتعلم يعرف سلفا». علاوة على ذلك يؤكد أوزوبل على أن البنية المعرفية تشكل موضوعا لتنظيم تراشيحي، إذ تسبق المفاهيم العامة المفاهيم الخاصة، وتنطبع المعارف الجديدة على المعرفة القديمة. ويقترح ضمن هذا المنظور وسائل لجعل التعلم أكثر فعالية، وخاصة تعلم «المُنظّمات» (أي العناصر التي «تنظم» المعرفة). ففي الكتب المدرسية، تشكل الملخصات التي تسبق النصوص، وكذا التذكير ببعض القواعد أو المبادئ قبل الشروع في النشاط، (أي «ما يلزم معرفته»، و«الكلمات المفتاحية» و«هل فهمت حقا؟»)، كل ذلك يشكل آثارا محسوسة للمُنظّمات.

لقد انشغل الباحثون المعرفيون أيضا باكتشاف مختلف «استراتيجيات التعلم» التي يفعلها فرد معين من أجل التعلم. فأن يسطّر على المقاطع الهامة لنص، ويعدّ بطاقات تركيبية، ويستظهر بعض المقاطع ذهنيا وغير ذلك، كل ذلك يعد تجسيدا لبعض تكتيكات، أو استراتيجيات التعلم المستعملة من قبل التلاميذ قصد التعلم والفهم.

واللجوء إلى رصيد استراتيجياته لبلوغ هذه الأهداف، وتوقع المشكلات (...). وتقييم عمليات التخطيط والتدريس عند مختتم نشاطه».

إنه نموذج متطلب بالنسبة للمدرس. إذ يلزمه بداية بتحديد أهدافه، وتحديد المضامين واستراتيجياته التعليمية التي ستقدم مثلا في شكل جداول وخطاطات. لكن يجب على المدرس من جهة أخرى إيلاء اهتمام خاص لنهج التلاميذ ومعارفهم ولاستراتيجياتهم.

ويتعين عليه دفعهم إلى الإفصاح عن استراتيجيات تعلمهم وإلى تقويم فعاليتها. وفي الأخير يلزم أيضا اعتبار المكونات الوجدانية والاجتماعية. والواقع أن استراتيجيات التدريس تفترض إدماج العوامل المختلفة التي تؤثر في التعلم الجيد. وبذلك نلتقي بنماذج التدريس التي تسعى إلى اعتبار المكتسبات الواردة في المقاربات المختلفة؛ من سلوكية ومعرفية وسوسيو-معرفية.

ليس هناك إذاً منهج جيد للتربية قابل للتطبيق في كل مكان وزمان، كل ما هنالك هو تعدد للاستراتيجيات ومستويات التدخل بحسب المواضيع واللحظات والمتعلمين.

من علم النفس إلى البيداغوجيا:

يقوم التحكم في سيرورة التعلم على ترسانة متنوعة من الأدوات. وهو يفترض الكفايات بقدر ما يفترض التنظيم والوسائل والمعدات والزمن.

وبالتالي فإن استراتيجيات التعلم تشكل إجراءات معرفية أو ميتا-معرفية تستهدف الإدماج الأمثل للمعلومة. لقد تم اعتبار الكثير من الاستراتيجيات ضمن الأدب العلمي، وهي تطبق أيضا في القراءة والكتابة أو في الرياضيات: من قبيل أخذ النقط، والاختبار الذاتي، وتخطيط الزمن، واعتماد منهج KWL الذي يحيل على الصياغة الإنجليزية: Know, What to know, Learn؛ هذا المنهج الذي يكون فيه التلميذ مدعوا إلى تقويم ما يعرف [Know]، وما يريد معرفته [What to know]، ثم ما تعلمه (Learn)، أو اعتماد منظومة موردر (Murder) المقدّمة من قبل دانسيرو (Dansereau) والتي تستدعي المراحل المختلفة. إذ تعد Murder صيغة مختصرة للكلمات: [Mood بمعنى الاستعداد النفسي الضروري للدراسة]، و[Understand] أي فهم المهمة، و[Recall] بمعنى التذكر، و[Detail] بمعنى تفصيل المعلومة، و[Expand] بمعنى البسط أو التطوير و[Review] أي فحص النتيجة النهائية.

● **استراتيجيات التدريس:** إلى جانب استراتيجيات تعلم التلميذ، سيتم إيلاء اهتمام كبير لاستراتيجيات التدريس، أي للمقاربة البيداغوجية التي يختارها المدرس. فمن أجل مساعدة التلاميذ على تنمية قدراتهم في معالجة المعلومة وتنظيم معارفهم، سيتم تطوير نموذج للتدريس «الاستراتيجي» من طرف ب. ف. دجونز (B.F.Jones)، حيث إن هدف المدرس هو « وضع أهداف محددة بعناية،

في الواقع، يعتبر التخطيط البيداغوجي دائم الارتباط بتحليل الوضعية، ولا يمكن للمدرس أن يتبنى مقارنة بيداغوجية (أو الكثير منها) ويختار الوسائل الديداكتيكية والتنظيم المادي للقسم ونوعية تجميع التلاميذ ومسؤوليات كل واحد منهم وتدير الزمن، لا يمكنه كل ذلك إلا انطلاقاً من أهداف البرامج، ومن سياق التدريس ومن الحالة الأولية، ولا يمكن إنجاز تخطيط من هذا القبيل إلا بالعلاقة مع المتعلمين. وهذا ما نلاحظه، إذ يمكن لنظريات التعلم أن تقدم الكثير للممارسات البيداغوجية، شريطة إغناء الحوار بين السيكولوجيا والبيداغوجيا وتأمين التعاون بين علماء سيكولوجيا التعلم والمدرسين.